

حبيب الراوي
استاذ اللغة العربية
كلية التربية - بغداد
١٩٦٧

- ١ -

ابن القرية

من الاقوال الماثورة ان اربعة لم يلحنوا في جد ولا نزل وهم ((الشعبي وعبد الملك والحجاج وابن القرية)) (١).

والثلاثة الاوائل معروفون فالشعبي قد اشتهر بالفقه والورع وعبد الملك والحجاج كان اولهما خليفة والثاني عاملا له على الكوفة ، ويبدو ان الاربعة قد عاشوا في عصر واحد هو العصر الاموي . وفي عهد عبد الملك على وجه الدقة .

اما ابن القرية فقد كان شخصية مدهورة في مستهل حياته ، حيث كان اميا لا يحسن القراءة والكتابة ولكنه اوتي من قوة العقل وحدة الذكاء الحظ الاوفر ، فكان خطيبا مصفا ومثكلا مفتوها لا يشق له غبار ، ولا يمسك عليه بلحن ، وفوق كل هذا كان له رأى وحكمة جعلت الحجاج يعتمد عليه لا في المسائل العامة حسب ، بل وفي اموره الخاصة كما سنرى فيما بعد .

الشك في شخصية ابن القرية :

قبل ان نتناول حياته واخباره لابد لنا ان نقف عند رواية اوردتها ابو الفرج الاصبهاني في معرض الحديث عن اخبار مجنون بني عامر ، فهو بعد ان يسرد ما سمعه من اخباره وشعاره يذكر حديثا منسوبا الى عوانة (٢) موداه ان ((ثلاثة لم يكونوا قبل ولا عرفوا ابن ابن الغنم صاحب قصيدة الملاحم وابن القرية . ومجنون بني عامر (٣))) فهل كان ابن القرية شخصية واقعية لعبت دورها على مسرح الاحداث ، ام كان من اولئك الاشخاص الذين صاغهم خيال السرواة والقصاص (٤) .

ولابد لنا من الاشارة الى ان الاصبهاني وحده قد انفرد بذكر هذه الرواية ولم يشر الى عوانة من هو ، ولكن الطبري المؤرخ المعروف بتحريه للحقائق يورد رواية منسوبة الى عوانة والارجح انه عوانة الكلبي وهي تناقض ما اوردته الاصبهاني ويؤيد هذه الرواية ((قال هشام قال عوانة حين منع الحجاج من الكلام ابن القرية ، قال له ابن القرية : والله لو كنت انا وانت على السواء لكنا جميعا او لا يفتنا منيعا (٥))) وهذا يعني ان عوانة هذا كان علم ببعض اخبار ابن القرية ، باعتبار انه شخصية تاريخية .

واذا علمنا ان الاصبهاني يعتمد نهجه على جمع الروايات التي يتوصل اليها ، وقد تولى الطرافة في بعض الاحيان ، لان كتابه ، وان كنا رايناه يعتمد على الاسناد فيما اوردته من معلومات ، ولكن نظرة واحدة الى ما اوردته من اخبار مجنون بني عامر وما نسبته اليه من شعر ، مع انه كان شاكاً في وجود مثل هذه الشخصية تكفي للتدليل على ذلك (٦) .

واذا علمنا ان المؤرخين يكاد يعتقد اجمعهم على وجود شخصية حقيقية هي شخصية ابن القرية واسمه ايوب بن زيد (٧) وكنيته ابوسليمان (٨) وان مقتله على يد الحجاج بعد حوار دار بينهما سوف نذكره وذلك عام ٨٤ هـ (٩) ، مع اختلافات يسيرة في بعض التفاصيل ، ادركنا ان وجوده كحقيقة لا واهما .

وهناك بعض الاختلافات حول شخصية (القرية) التي ينتسب اليها ايوب ، فالبعض يقول انها ابيه (١٠) والبعض الآخر يقول ان جده كان ابنا للقرية التي تزوجها مالك ابن عمرو ، وان كليهما جد العباس بن عبد المطلب من سلالتهما فالعباس (عم النبي) يكون من اولاد القرية بهذا الاعتبار ، والبعض الآخر يقول انها جدته (١١) .

وذكر ابن قتيبة (١٢) ان ابن القرية هلالى اى من بني هلال بن ربيعة بن زيد بن مناة ولكن ابن خلكان يشير الى رواية مسندة الى ابن الكلبي (١٣) ان ابن القرية من بني مالك بن عمرو ابن زيد بن مناة فذا يجتمع هلال وبالك الا في زيد ، وهي اختلافات يسيرة لا تدفعنا الى الشك في شخصية الرجل ، كما ان هناك رواية اخرى لابن عبد ربه انه من سلالة عوف بن سعد الذي ينتسب الى ربيعة قبل شيان (١٤) .

وطعن من الاسباب التي دفعت الى الشك في وجوده انه وقد اشتهر امره بين العامة في العصر العباسي ، فمن المحتمل انه قد اضيف اليه ما لم يقل او يفعل ، وقد يكون سبب شهرته بين العامة آنذاك مصرعه على يدى الحجاج والموقف البطولي الذي وقفه ازاءه ، ويقول الباحث في هذا الصدد ((٠٠٠)) وقد يبلغ الفارس والجواد الغاية في الشهرة ولا يرزق ذلك الذكر والتفويه بعض من هو اولى به ، الا ترى العامة ابن القرية عندها اشهر في الخطابة من سنان وائل ، وعبد الله بن الحر اذكر في الفروسيّة عندهم من زهير بن ذؤيب وكذلك مذهبهم في هنترة بن شداد وثيبة بن الحارث بن شهاب ، وهم يفسرون المثل بمعمرو بن معد يكرب ولا يعرفون بسنظام بن قيس)) (١٥) .

بعض اخباره :

تقتصر اخبار ابن القرية التي اوردها المؤرخون عن علاقاته مع الحجاج وعامله حوشب ابن يزيد وعبد الرحمن بن الاشعث (١٦) وهي بمجموعها تؤكد حقيقة وجوده ومقتله صبرا على يدى الحجاج ، وهذه بعض تلك الاخبار :

١ - الخبر الذي يشير الى كيفية تعرّف الحجاج على ابن القرية وكيفية خروجه عليه ، وهو انه كان قد اصابته السنة واشفق واشتد به العوز فقدم عين التمر وعلمها وال للحجاج كان يفتدى ويشي كل يوم ، وكان ابن القرية بين هؤلاء الذين يحضرون غداً ، وعشاء ، وقد لاحظ ان العامل لم يحضر طعام الغدا ، في احد الايام بسبب ورود كتاب عربي غريب من الحجاج لا يدري ما هو ، فادرك ابن القرية الموقف وعرض مساعدته للعامل الذي وافق ان يملئ على كاتبه جوابا للحجاج ، وقد ادرك الحجاج ان هذا ليس من صنع عامله فطلب اليه ان يشخص اليه على جناح السرعة ذلك الذي صنع جواب كتابه ، فبعث به اليه وحين كلمه اعجب بفصاحته ولاغتته ، واخذ يعتمد عليه في مهامه ، من ذلك انه ارسله الى الخلطة الوليد (١٧) ولكن لم يذكر عن المهمة التي ارسله من اجلها ، ولا الحوار الذي دار بينه وبين الوليد ، بينما

يسجل المؤرخون محاورات عدة جرت بينه وبين الحجاج ، ويذكرون اخبار من مهمات خاصة بعثه بها الحجاج كالخطوبة او الطلاق من بعض ازواجه كما سوف نذكر .

٢ — ذكر الطبري ان ابن الاشعث كان يدخل على حوشب بن يزيد (عامل الحجاج على الكوفة) بعد انصرافه من دير الجماجم (وهي الواقعة التي جرت بين الحجاج وعبد الرحمن بن الاشعث حين خرج هذا على الطاعة في ولاية سجستان) فيقول حوشب : انظروا الى هذا الواقف معي ، وغدا او بعد غد يأتي كتاب من الامير (اي الحجاج) لا استطيع الا انفاذه ، فهنا هو واقف ذات يوم ، ان اتاه كتاب من الحجاج يقل فيه ((اما بعد فانك صرت كهذا لمنافقي اهل العراق وماوى ، فاذا نظرت في كتابي هذا فابعث الي ابن القرية مشدودة يده الى عنقه مع ثقة من قبلك)) فلما قرأ حوشب الكتاب رمى به فقرا ، وقال : سمعا وطاعة فبعث به الى الحجاج موثقا (١٨) ، ويمكن الاستنباط من رواية الطبري هذه ان عامل الحجاج قد استدرج ابن القرية وقد يكون اعطاه الايمان ان لا يضر عليه ، فلما قبض عليه ارسله الى الحجاج بناء على طلبه ، ان من المستبعد ان يشترك ابن القرية في معركة دير الجماجم التي جانب ابن الاشعث ثم يطعن الى ملازمة مجلس احد عمال الحجاج المعروفين بشدة بطائشهم وفكره بمن يشبهه انهم خصومه ، فكيف بمن وقف مع عدوه في العلانية ، وحمل السيف ضده ؟

٣ — ويقط ابن خلكان ((لما خلع عبد الرحمن . . . بن الاشعث ، الطاعة بسجستان ، وهي واقعة مشهورة ، بعثه الحجاج — اي ابن القرية — اليه رسولا ، فلما دخل عليه ، قال : لتقومن خطيبا ، وتخلعن عبد الملك ، ولتصبن الحجاج اولاً من عنقك ! فقال : ايها الامير انما انا رسل ، قال : هو ما اقل لك ، فقام وخطب وخلع عبد الملك وشم الحجاج واقام هنالك ، فلما انصرف ابن الاشعث مهزوا كتب الحجاج الى عماله بالرقي واصفهان وما يليهما بامرهم الا يترهم احد من قبل ابن الاشعث الا بعثوا به اسيرا اليه ، واخذ ابن القرية فيمن اخذ (١٩) .

مقتله من الحجاج :

تشير الروايات الى ان الحجاج كان يعتمد على ابن القرية في اموره العامة والخاصة ، فقد ذكرنا انه اوفده الى عبد الملك في بعض مهامه ، وقيل انه اوفده الى ابن الاشعث ليقتعه الى العدل عما هم به ويعيده الى الطاعة للحكم الاموي ، ولكنه ابن الاشعث ارغفه ان يقف الى جانبه ضد الحكم الاموي .

ومن المهمات الخاصة التي انتدبه اليها خطيبته هند بنت اسامة زوج الحجاج حيث طلب من ابن القرية ان يخطبها والا يزيد على ثلاث كلمات فقال : آتاكم من عند من تعلمون ،

والأمر يستلزم ما تسألون افتكحون أم تردون ؟ ! قالوا بل انكحنا وانعمنا ، فرجع ابن القرية الى الحجاج فقال : اقر الله عينك وبيع شملك ، وانبت ريمك على الثبات ، والغنى حتى الممات (١٠) .

وحين اراد الحجاج ان يطلق هنداً هذه استخدمه لهذه المهمة ، وطلب منه ان يطلقها بكاءتين ويمتعها بعشرة آلاف درهم فقال لها : ان الحجاج يقبل لك : كنت فبنت ، وهذه عشرة آلاف متعة لك ، فقالت : كنا فما حمدنا ، ومنا فما ندمنا ، وهذه العشرة آلاف لك بشارتك اياي بخلاقي (١١) .

ومهما بلغ هذان الخبران من الصحة او الوضع ، فان اثباتهما او نفيهما لا يؤثر على حقيقة وجود ابن القرية .

مقتله :

تواترت الروايات ان مقتل ابن القرية كان على يد الحجاج سنة ٨٤ هـ ، ومعظمها يشير الى المناورة التالية التي جرت بين الاثنين :

الحجاج — ماذا اعددت لهذا المرقف ؟
ابن القرية — ثلاثة حروف ، كأنهم ركب وقوف : دنيا وآخرة ومعروف .
الحجاج — اخرج عما انت فيه
ابن القرية — افعل ! اما الدنيا ، فقال حاضر يأكل منه البر والفاجر ، واما الآخرة فميزان عادل ، ومشهد ليس فيه باطل ، اما المعروف فان كان علي اعترفت وان كان لي اعترفت ثم اردف ذلك قائلاً :
اصح الله الامير اقلني عثرتي ، واسقني ريقى ، فانه ليس جواد الا له كهوة ، ولا شجاع الا له هبوة ، قال الحجاج — والله لاريك جهنم ، قال فارحني فاني اجد حرها . قال : قدم يا حرم فاضرب عنقه ، فلما نظرا اليه الحجاج يتشمط في دمه قال : لو كنا تركنا ابن القرية حتى نسمع من كلامه (٢٢) .
وهذا يعني ان الحجاج قد ندم على قتله (٢٣) .

نبل من اقواله :

سارت كثير من اقوال ابن القرية بين الناس مسير الامثال ، ولعل احتواءها على الحكم والاراء السديدة ، وما فيها من ازواج اوسجع قد كانت هذه كلها عوامل ساعدت على ذيوها وانتشارها هذا فوق ما اشتهر به الرجل في مجال الفصاحة والخطابة ، ولعل الطريقة التي انتهت حياتها بها ، ساعدت على شهرته انتشار اقواله ، حتى اخذ طريق من الادباء

يقترن منها ١ ومن ذلك ما رواه الجاحظ ان الخروي وصف شعر نفسه في مديح ابن دلف ١
حيث يقول :

له كلم فيك معقولة ازا ١ القلوب كركب وقوف

ويظنون ان الخروي انما احتذى في هذا البيت على كلام ايوب بن القزينة ١ حين قال له بعض
السلطين : ما اعددت لهذا الموقف ١ قال ثلاثة حروف ١ كأنهم ركب وقوف ١ دنيا
وأخرة ومعروف (٢٤) ١ ومعلوم لدينا - كما تقدم - ان هذه المحاورة كانت مع الجاحظ .

وفي (مجاني الادب) وصف للجراح على لسانه اذ يقول ((الجراح اوله فرح وآخره
نوح والجراح نقاش السفها ١ كالشعر نقاش الشعرا ١ والجراح يوغر صدر الصديق ١ وينفسر
الرفيق (٢٥) .

وقال في اصناف الناس ((الناس ثلاثة : عاقل واحق وقاجر ١ اما العاقل فان الدين
شريعته والحلم طبيعته والرائى الحسن سجيته ١ ان نطق اصاب ١ وان كلم اجاب ١ وان
سمع العلم وعى وان سمع الفقه روى . اما الاحق فان تكلم على عجل ١ وان حدث زهل وان
حمل على القبح حمل . واما القاجر فان استأمنته خاك ١ وان صاحبه شاك ١ وان استكتم
لم يكتم ١ وان علم لم يعلم ١ وان حدث لم يصدق ١ وان فقه لم يفقه (٢٦) .

ومن الاسجاع المنسوبة اليه ١ قوله وقد كان دعى للكلام او احتبس عليه القيل ((قد طال
السهر ١ وسقط القمر واشتد المطر فماذا ينتظر ؟)) فاجابه فتى من بني عبد القيس ((قد
طال الارق ١ وسقط الشفق وكثر اللقي فلينطق من نطق)) (٢٧) .

ويذكر ابن خلكان محاورة تبلغ ثلاث صفحات من كتابه ١ بين الجاحظ وابن القزينة عن
صفات الناس والارضين ١ نجتزئ منها بما يلي ١ ويمكن الرجوع اليها كاملة في ملاحظتها (٢٨)

الجاحظ - - خبرني عما اسألك عنه .

ابن القزينة - سلفي عدا شئت .

الجاحظ - فاخبرني عن اهل العراق

ابن القزينة - اعلم الناس بحق وما طل

قال - فاهل الحجاز ١ قال - اسرع الناس الى فتنه وأعجزهم فيها

قال - فاهل الشام ١ قال - اطوع الناس لخلقائهم

قال - فاهل مصر ١ قال - عبيد لمن غلب

قال - فاهل البحرين ١ قال - سنبط استعبدوا

قال - فاهل عمان ١ قال - عرب استعبدوا

قال - فاهل الموصل ١ قال - اشجع فرسان واقتل للاقوان

قال - فاهل اليمن ١ قال - اهل سمع وطاعة ولزوم للجماعة

قال - فاهل اليمامة ١ قال - اهل جفا ١ واختلاف للاهوا ١

قال - فاهل فارس ؛ قال - اهل باس شديد وشرعتيد ؛ وريف كبير وقرى يسير
قال - اخبرني عن العرب ؛ قال - سلخي
قال - قريش ؛ قال - اعظمها اطلاقا ؛ واکرمها مقاما
قال - فبنو عامر ؛ قال - اطولها راحا ؛ واکرمها صاحبا
قال - فبنو سليم ؛ قال - اعظمها دبالس ؛ واکرمها مخابس الخ

وسأله بعض العلماء عن حدّ الدهاء ؛ فقال ؛ هو شجوع العضة وتوقع القرضه
ومن كلامه في صفة المعين - هو التخنخ من غير داء ؛ والتناوب من غير رية ؛ والاكباب في
الارض من غير عله (٢٩)

وروى ان الحبلج بن يوسف الثقفي ؛ سأل ابن القرية عن صفات الجواد ؛ فقال .
نعم اصلح الله الامير الطويل الثلاث ؛ القصير الثلاث ؛ الرحب الثلاث ؛ الصافي الثلاث ؛
قال ؛ صفهن وبن لفظك ؛ فقال ؛ اما الطويل الثلاث ؛ فالاذن والمعنق والذراع ؛ واما
القصير الثلاث ؛ فالعسيب والساق والظهر ؛ واما الرحب الثلاث ؛ فالبهوف والمختر والجبهة ؛
واما الصافي الثلاث ؛ فالاديم والعين والحافر (٣٠) .

وبعد كل هذا نستطيع ان نرجح ترجيحاً اقرب ما يكون الى اليقين ان ابن القرية شخصية
واقعية وليست من صنع الخيال ؛ بالرغم مما اضيف اليه من اقوال او افعال قد لا تربطها به رابطة
او تقوم معها علاقة .

- (١) اخبار الزجيجي (م) لوحة ٣٠ نقلا عن القرآن الكريم واثره في الدراسات النقدية تأليف هبة العمال مكرم ص ٥٨ .
- (٢) دموعه بن الكلي كما يقبل بروكلمان ٢٠٠/١
- (٣) نسب بروكلمان هذه الرواية الى ابن الكلي لما ورد في الهامش (٢) والصحيح ان هذا القتل اوردته صاحب الاغانى ٩/٢
- (٤) تشير الى ما كتبه الدكتور دله حسين في ((الادب الجاهلي)) الذي طبع للمرة الاولى تحت عنوان ((في الشعر الجاهلي)) وما اثاره من شكوك حول روايات ابن اسحق في تاريخه وهو من اقدم المؤرخين ، ويقطع بن سلام الحميمي في طبقات الشعراء ص ٤١ بأن ابن اسحق قد جعل كل شئ من الشعر الطبرى : حوادث سنة ٨٤ في مصر الحديث عن مقتل ابن القرية
- (٦) انظر المصنفات من ٦-١٠ من الجزء الثاني من الاغانى ، والروايات التي فيها تدل على ان المجنون كان من صنع الخيال ومنها ان ايوب بن هبابة حدثه من سأل بني عامر بطننا بعدنا من المجنون فما وجد فيهم احدا يعرفه ٩/٢ ، وقال الجاهلي ((ما ترك الناس شعرا مجهول القائل في اهل الانسوبة الى المجنون)) ٨/٢ الاغانى ، وانظر ما كتبه الدكتور زكي مبارك تحت عنوان ((روايات الاغانى)) في مجلة المقتطف المصرية عدد يوليو سنة ١٩٣٠ وقد اتهمه بأنه يعطي صورة غير صحيحة عن المعصور التي يتحدث عنها .
- (٧) البيان والتبيين ١١٢/١ والنجم الزاهرة ٢٠٧/١ والمعارف ٤٠٤
- (٨) ابن خلكان ٢٢٧/١ والمعارف ص ٤٠٤ ، والبيان والتبيين ٢٠/١
- (٩) وفيات الاعيان ٢٢٧/١ ابن الاثير حوادث سنة ٨٤ ، الطبرى حوادث سنة ٨٤ ، ابن تغري بردي حوادث سنة ٨٤ ، وينفرد المسعودي في القتل ان مقتل ابن القرية كان سنة ٨٢ انظر المروج ٨٠/٣ ، وحل الذي وقع في ذلك الالتباس ان خروج ابن الاشعث على الحكم الاموي كان في تلك السنة .
- (١٠) المعارف لابن قتيبة ص ٥٦٨ في باب ((المنسوين الى غير آبائهم وعشائهم)) وانظر ص ٤٠٤ من هذا الكتاب .
- (١١) انظر ابن خلكان الترجمة ٨٤ والفهرست لابن النديم ص ١٧٠
- (١٢) المعارف ٤٠٤
- (١٣) ابن خلكان ٢٢٧/١ والذهبي ٢٤٣/٣
- (١٤) المعقد الفريد ٢٧٦/٣
- (١٥) البيان والتبيين ٢٠/١
- (١٦) الطبرى/ حوادث سنة ٨٤ ، توفيق وزهر الادب ٤٩/٤ والنجم الزاهرة ٢٠٧/١
- (١٧) وفيات الاعيان ٢٢٧/١ والذهبي ٢٤٣/٣

- (١٨) الطبرى / حوادث سنة ٨٤
- (١٩) وفيات الاعيان ٢٢٨/١ ، الذهبى ٢٤٣/٣
- (٢٠) عين الاخبار ٦٩/٣
- (٢١) عين الاخبار ٢٠٩/٢
- (٢٢) الطبرى / حوادث ٨٤
- (٢٣) المصدر نفسه ، وانتظر زهر الآداب ٤٩/٤
- (٢٤) البيان والتبيين ١١٢/١
- (٢٥) ميثاقى الادب ١٢٠/٣
- (٢٦) مروج الذهب ٨٠/٣
- (٢٧) البيان والتبيين ٢٩٨/١
- (٢٨) وفيات الاعيان ٢٨/١ - ١٣٠
- (٢٩) المصدر نفسه
- (٣٠) بلوغ العرب فى احوال العرب ٨٤/٢